مكتبة الدراسات الأدبية
٣٩

ابن الكيزانى

الشاعر الصوفى المصرى

حياته وديوانه

تأليف
الدكتور على صافى حسين

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

ابن الكيزانى

الشاعر الصّوفى المصرى

تقديم

أرى أن دراسة الأعلام السابقين — من أساطين الفكر ، وأئمة الدين ومن عباقرة فن القول وأرباب البلاغة والبراعة — وترجمة حياتهم ، تهدف أولا وبالذات إلى إعطاء اللاحقين أو المتأخرين من طلاب المعرفة ورواد الأدب صوراً ناطقة معبرة تمثل — فى مطابقة تصدق على قدر جهد الباحث — شخصيات أولئك المتقدمين من الجهابذة الناقدين ، والعلماء المحققين ، والشعراء المفلقين ، والكتاب الضالعين ، والخطباء اللسن المصاقع . فهى — أعنى تلك الصور المتحصلة من دراسة أولئك الأفذاذ — تجسم فيما تحتوى عليه من ملامح وقسمات عواطفهم وإحساساتهم ، وتبين أهواءهم ، وتفصل آراءهم ، وتكشف عن عقلياتهم ، وتبرز إلى حيز الوجود الفكرى والثقافى طاقاتهم العلمية وملكاتهم الفنية . فينضاف بذلك لبنة أو لبنات جديدة فى بناء العلم وصرح الفن ودنيا الأدب . وبالتالى يفيد من ذلك فائدة مرجوة طلاب المعارف وعشاق الآداب . وكل ذلك لا يجىء على الوجه المرضى ولا يتأتى منه الغرض إلا إذا كانت دراسة العالم أو الأديب ، وترجمة حياته ، قائمة على التدبر والتأمل والفهم الصحيح . ونحن إذا أردنا أن تكون أفهامنا لأولئك الأشخاص أدنى إلى الصحة وأقرب إلى الصواب ، وأحكامنا عليهم أدخل فى الإنصاف والسداد ، فإن علينا أولا أن نجمع ما خلفوه من نصوص وأقوال حتى نستوعب كل ما أمكننا أن نصل إليه من ذلك ، أو نقف عليه ، ثم نحقق تلك النصوص ونتثبت من صحة نسبتها إلى قائلها . وبعد ذلك ننظر بعين التحقق والتثبت والنقد والتمحيص فيما قيل فى حق موضوع الدرس أو الترجمة من أحكام وآراء من الذين عاصروه وخالطوه أو الذين ترجموا له ممن لم يلقوه ولا رأوه ، وإنما سمعوا به وقرأوا عنه . وأخيراً وليس آخراً نتفهم العصر الذى كان يعيش فيه المترجم له أو من اختير موضوعاً للبحث العلمى والتحقيق الأدبى كالذى نحن بصدده فى هذا البحث من دراستنا لابن الكيزانى .

ولست أعنى بالعصر الزمان أو الشهور والأيام ، وإنما أقصد تلك العناصر والمقومات التى تتألف منها حياة الجماعة البشرية وهى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وإننا حين ندرس العصر على هذا الوجه إنما ندرسه لأمرين هما :

أولا : كون الإنسان كائناً حيًّا يتفاعل فى حياته الفكرية والجسمية مع الوسط الذى يعيش فيه ، ولست أريد أن أنساق فى هذه المسألة وراء أولئك العلماء الذين بالغوا فى تصويرهم لمدى ارتباط الإنسان ببيئته ووسطه ، إذ زعموا أنه ليس إلا أثراً أو نتيجة لتفاعل عناصر البيئة المادية والمعنوية ، وإنما أقول فقط إن الإنسان يتأثر بالغ التأثر بما يحدث أو يقع حوله من أحداث وما يكتنف وجوده من مظاهر الحياة الإنسانية وأوضاع الجماعة البشرية ، ثم هو يتأثر إلى حد كبير بما تكون عليه حال أرض الوطن الذى يعيش فيه من سهولة وانبساط يجعل الحياة ميسورة ، أو وعورة وصعوبة تجعل الحركة والتنقل بين بقاعها عسيرة مضنية . وذلك إذا ما كانت هذه الأرض أو تلك البلاد تكثر فيها الجبال والأودية أو الصحارى والقفار . وكذلك يكون تأثره بالغاً بطبيعة الجو أو المناخ الذى يظله فى ذلك الوطن . إذ لا يستطيع ذو عقل أن ينكر ما لبرودة الجو أو حرارته من تأثير على الأجسام والأبدان والنفوس والميول والرغبات والسلوك والأخلاق .

وأما السبب الثانى الذى من أجله نكلف ونعنى إلى حد كبير بدراسة عصر ذلك الشخص المقصود بالبحث أو الترجمة ، فهو أن الإنسان معقد فى حياته وتصرفاته ، وعلماء النفس يعترفون بهذا ويقرونه . فهو — أعنى الإنسان — كثيراً ما يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ، ومن هنا كان لعصر الشاعر أو الأديب دخل كبير فى تفسير ما قد يعترض الباحث فى تفهمه شخصية من تصدى له بالدراسة من مشاكل ، منشؤها ما قد يبدو من تناقض فى أقواله وأشعاره أو سلوكه وأفعاله . وبالجملة فإن على الباحث الذى يريد أن يخرج للناس صورة صادقة تنطبق على ذلك الشاعر أو الأديب الذى يختاره موضوعاً للبحث والدراسة ، وبخاصة إذا أراد أن يقدم ذلك البحث إلى إحدى الجامعات كرسالة يرجو أن يمنح بمقتضاها درجة علمية ، فإن عليه والأمر كذلك أن يجمع كل ما وصلت إليه يده من نصوص وأقوال ، تنسب إلى الشخص الذى هو موضوع البحث والدراسة ثم يحقق تلك النصوص ويتثبت

من صحة نسبتها إليه ، وبعد ذلك يتبين الظروف والأحوال التى قيل فيها ذلك النص ، ثم ينظر فيما يقال فى حق ذلك الشاعر أو الأديب من آراء أو أحكام تكون له وقد تكون عليه ، سواء أكان أصحاب تلك الأحكام أو الآراء ممن عاصروه وقدر لهم لقياه والأخذ عنه ، أم لم يقدر لهم أن يلقوه ولكن سمعوا به وقرءوا عنه .. أو كان أصحاب تلك الآراء والأحكام ممن جاءوا بعده فترجموا له أو أرخوه . ولكن الفريق الأول فى رأيى أصح رأياً وأصدق حديثاً .

ثم بعد ذلك تأتى أهمية العصر ومكانته بالنسبة للمنهج العلمى الصحيح الذى يترسمه الباحث فى تحقيق شخصية موضوع الرسالة . وإن كان العصر يجىء متقدماً فى ترتيب الرسالة وتبويبها فى أكثر الأحيان فإنه ليس معنى ذلك أن العصر يحتل بالجدارة والاستحقاق من الوجهة المنهجية مكان الصدارة من البحث أو الكتاب ، إنما هو فى الواقع ونفس الأمر لمجرد الترتيب والتنظيم فقط . فتقديم العصر إذن — فيما أعتقد — هو ترتيب شكلى أو ظاهرى .

وبناء على هذا يكون العصر متقدماً — فى الرسالة أو البحث أو الكتاب من الوجهة المنهجية — لفظاً متأخراً معنى ورتبة — على حد تعبير النحاة ، وقد التزمت بكل دقة وأمانة ذلك المنهج فى هذا الكتاب . فجمعت النصوص وحققتها ونظرت فى كل ما قيل فى شأن ابن الكيزانى ممن عاصروه أو لم يعاصروه ، وبعد ذلك تعرفت أوضاع الحياة التى كانت تسود العصر الذى عاش فيه ابن الكيزانى ، وبناء عليه فقد جاء القسم الأول من هذا الكتاب وهو الذى تناولت فيه بالبحث والتحقيق حياة ابن الكيزانى وتفهم جوانبها فى بابين : الباب الأول فى دراسة عصره ، فقد تكلمت فيه بإيجاز لاتفريط فيه عن مقومات ذلك العصر وعناصره ، وهى — كما هو معلوم بالضرورة لدى جميع الباحثين والمحققين — أربعة أمور هى : الظروف السياسية ، والأحوال الاقتصادية ، والأوضاع الاجتماعية والخلقية ، والحركة الفكرية والأدبية .

ومن ثم جاء هذا الباب فى خمسة فصول : الأول فى تبين الظروف السياسية ، والثانى فى الأحوال الاقتصادية ، والثالث فى الأوضاع الاجتماعية ، والرابع فى بيان عوامل اضمحلال الشعر الصوفى فى مصر فى القرن الخامس الهجرى وفى بيان أسباب عودته إلى الظهور من جديد فى مصر فى القرن السادس الهجرى — الذى هو عصر

ابن الكيزانى — ، والفصل الخامس فى بيان موضوعات وفنون ومدارس الشعر المصرى فى تلك الحقبة بوجه عام . وفى الباب الثانى تناولت حياة ابن الكيزانى بالدرس والتمحيص والنقد والتحليل ، وهو يقع فى ثلاثة عشر فصلا تكلمت فيها عن نشأته وتتلمذه ، وعن روايته الحديث وارتحاله فى طلبه ، وعن تدريسه له ولغيره من العلوم الشرعية وعن تربيته للمريدين ، وبينت موقفه من الشريعة وعلوم أهل الظاهر ، وقلت إنه كان سنى العقيدة والمذهب ، وبينت بعد ذلك كله موقفه من خلفاء الفاطميين وموقفهم منه ، وذكرت بعد ذلك أنه كان يقول بالاشتراكية ويحرم احتكار الأموال . ثم تحدثت عنه من حيث إنه شاعر أو أديب ، وبعد ذلك ذكرت آراء الأقدمين — من المؤرخين والناقدين — فيه ، وقبل ذلك تناولت بالشرح والتبيان أثر ابن الكيزانى فى تطوير العقلية المصرية من إطار التعاليم الباطنية إلى الفكر السنى ، كما بينت كذلك أثره الواضح فى توجيه الحركة الأدبية والشعرية فى مصر بوجه عام . وفى نهاية هذا الباب عرضت بالذكر إلى وفاة ابن الكيزانى والمكان الذى دفن فيه .

أما القسم الثانى من هذا الكتاب فيقع كذلك فى بابين : الباب الأول فى جمع شعر ابن الكيزانى وتحقيقه وترتيبه ، والباب الثانى فى دراسة شعره واستخلاص خصائصه الفنية وذكر مناهجه الأدبية .

والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد العلمى والفكرى والعمل الأدبى والفنى الضئيل طلاب العلم ورواد الثقافة وعشاق الآداب من أبناء الإسلام — خاصة — والشبيبة العربية بوجه عام .

القسم الأول

الباب الأول

عصر ابن الكيزانى

الفصل الأول

١ — الجانب السياسى

سنتناول فى هذا الفصل الأحوال السياسية التى كانت سائدة فى مصر إبان الدولة الفاطمية وبخاصة فى القرن السادس الهجرى وذلك من الناحيتين الداخلية والخارجية فنقول :

كان الفاطميون قد استولوا على مصر واستخلصوها لأنفسهم من أيدى العباسيين وذلك فى أوائل النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . ومن يقرأ تاريخ الدولة الفاطمية يجد أنها كانت فى أول أمرها عزيزة الجانب قوية الشكيمة يخشى العباسيون والفرنجة جميعاً بطشها ، إذ كانت قد بسطت سلطانها على البلدان الواقعة بين المغرب العربى وإقليم المشرق . أعنى أنها كانت قد سيطرت سيطرة فعلية على ليبيا ومصر وجميع ربوع الشام ، كما أنها قد امتدت فى أخريات القرن الخامس الهجرى إلى بلاد اليمن حيث قامت هناك دولة عرفت باسم الصلوحيين ، وكانت هذه الدولة تتبع الخلفاء الفاطميين من الناحيتين السياسية والمذهبية ، غير أن قوة الفاطميين أخذت تضعف وسلطانها بدأ يضمحل ، وذلك فى أوائل القرن السادس الهجرى ، وكان أول مظهر من مظاهر ضعف الدولة الفاطمية كون الفرنجة استطاعوا أن يستولوا سنة ٥٠٣ هجرية على بيت المقدس ، وذلك بعد معركة انهزم فيها الفاطميون هزيمة نكراء ، ولم يجرؤوا بعد تلك الهزيمة أن يعاودوا الكرة على بيت المقدس ، ومن ثم بقيت تلك المدينة المقدسة تحت حكم الصليبيين ، حتى استردها من أيديهم السلطان الناصر

صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٣ هجرية . ومن مظاهر ضعف الدولة الفاطمية من الناحية السياسية والعسكرية فى هذا العصر تلك الحرب الداخلية التى دامت مدة سبعة أعوام وكان الزعيمان المجليان فيها هما الوزيرين المشهورين باسم شاور وضرغام، وقد كان لاختلاف الوزراء الفاطميين على خلفائهم — من ناحية — وتشاحن أفراد البيت الحاكم فيما بينهم من الفاطميين أنفسهم — من ناحية أخرى — أكبر عامل فى التعجيل بزوال حكم الفاطميين .

وإليك من صور الخلاف والتشاحن الذى ساد بين خلفاء الفاطميين ووزرائهم فى القرن السادس الهجرى ، على سبيل المثال ما ذكره ابن تغرى بردى وصاحب مرآة الزمان وغيرهما من ثقات المؤرخين عن الخليفة الظافر ، إذ قالوا إنه حين آلت إليه الخلافة لم يتمكن من تدبير شئون مملكته على الوجه المطلوب .

وإليك ما قاله عنه العلامة شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قرز أوغلى سبط ابن الجوزى فى تاريخه مرآة الزمان[1] : « وكانت أيامه مضطربة لحداثة سنه واشتغاله باللهو ، وكان عباس الصنهاجى لما قتل ابن سلار ، وزر له واستولى عليه ، وكان له ولد اسمه نصر ، فأطمع نفسه فى الأمر ، وأراد قتل أبيه ، ودس إليه سمًّا ليقتله ، فعلم أبوه واحترز وأراد أن يقبض عليه فما قدر ، ومنعه مؤيد الدولة أسامة ابن منقذ — وقبح عليه ذلك وقال : إن فعلت هذا لم يبق لك أحد ويفر الناس منك ، فشرع أبوه يلاحظه — يعنى الوزير عباس يلاطف ابنه نصر — وقال له عوض ما تقتلنى اقتل الظافر ، وكان نصر ينادم الظافر ويعاشره . وكان الظافر يثق به وينزل فى الليل إلى داره متخفياً . فنزل ليلة إلى داره وكانت بالسيوفية داخل القاهرة ومعه خادم له ، فشربا ونام الظافر فقام نصر فقتله ورمى به فى بئر فلما أصبح عباس — يعنى الوزير أبا نصر — جاء إلى باب القصر يطلب الظافر ، فقال له خادم القصر ابنك يعرف أين هو — قتله — فقال عباس : ما لابنى فيه علم وأحضر أخوى الظافر وابن أخيه فقتلهم صبراً بين يديه ، وأحضر أعيان الدولة وقال : إن الظافر ركب البارحة فى مركب فانقلبت به فغرق . ثم أخرج عيسى ولد الظافر فتعرفوا على عباس وابنه ، وثار الجند والعبيد وأهل القاهرة ، وطالبوا بثأر الظافر من عباس وابنه نصر فأخذ

---

(١) النجوم الزاهرة : ص ٢٨٨ .

عباس وابنه نصرما قدرا عليه من المال والجواهر وهربا إلى الشام، فبلغ الفرنج فخرجوا إليهما وقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ، أو قتل نصر فى السنة الآتية .

وذهب ابن القلانسى إلى خلاف هذا فقال: وكان الظافر قد ركن إليهم—يعنى أخويه وابن عمه — وأنس بهم فى وقت مسراته فاتفقوا عليه واغتالوه، وذلك فى يوم الخميس سلخ صفر وحضر العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة من الأمراء والمقدمين للسلام على الرسم فقيل لهم إن أمير المؤمنين ملتاث الجسم فطلبوا الدخول إليه فمنعوا فألحوا فى الدخول بسبب العيادة فلم يمكنوا فهجموا ودخلوا القصر وانكشف أمره فقتلوا الثلاثة وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنين ولقبوه بالفائز بنصر الله وبايعوه، وعباس الوزير إليه تدبير الأمور »[1] .

ومهما يكن من أمر فالأخبار متضاربة فى سبب قتل الخليفة الفاطمى، ولم يهتد التاريخ إلى الباعث الذى قتل من أجله الظافر ، غير أنه من الواضح البيّن أن حالة البلاد ساءت وتردت بعد قتله واضطربت الأمور واجتمع رجال القصر وسيداته وسيدات البلاط يفكرون فيما حل بهم من التدهور والارتباك ، فوقع الاختيار على طلب طلائع بن رزيك إلى مصر، فكتبوا إليه وهو حينئذ والى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه بقتل الظافر ويستنجدونه على عباس وابنه نصر ، وأرسلت إليه أخوات الظافر بشعورهن فى كتب كلها سواد ،وكتب إليه فيمن كتب القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب قصيدته الدالية التى أولها :

دهتنى عن نظم القريض عَوَادى ... وشفّ فؤادى شجوه المتمادِى
وأرّق عينى والعيونُ هواجعُ ... همومٌ أقضّت مضجعى ووسادِى
بمصرع أبناء الوصىّ وعترة الـ ... ـنبى وآل الذاريات وصادِ
فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم ... وما لهم من منعة وذيادِ
أولئك أنصار الهدى وبنو الردى ... وسم العدا من حاضرين وباد
لقد هد ركن الدين ليلة قتله ... بخير دليل للنجاة وهاد

---

(١) النجوم الزاهرة : ص ٢٩١ .

تَدَارَكْ من الإيمان قبل دثوره حشاشةَ نفسٍ آذنت بنفاد

وقد عاينت عيناك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد[١]

وهى طويلة كلها على هذا المنوال فى معنى النجدة .

« ولما بلغ طلائع الخبر امتعض من ذلك وجمع الجموع وحشد الجنود وقصد القاهرة . ولما علم عباس أنه لاطاقة له به جمع أمره وأسبابه وأهله وخرج من القاهرة ، فلما قرب من عسقلان وغزة خرج عليه جماعة من خيالة الفرنج فاغتر بكثرة من معه فلما حمل عليهم قتل أكثر أصحابه وانهزم الباقون ، وقتل عباس وأخذت الفرنج أمواله وهرب ابن المنقذ فى طائفة إلى الشام وأسر ابنه الكبير الذى قتل ابن سلار وصار الجميع للفرنج ومن هرب مات من الجوع والعطش » .

وهذا لَعَمرِى أدل شىء على ضعف سلطان الفاطميين ، ولولا الاضطراب السياسى وضعف الحكم الفاطمى فى داخل البلاد لما استطاع الفرنجة أن يستولوا فى أوائل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى على عدد غير قليل من الحصون والقلاع والممالك والأقاليم فى بلاد الشام وشبه جزيرة سيناء وخليج تيران . هذا على أنه قد حدث فى أيام العاضد بالله أثناء تسلط الوزير شاور على مقاليد الأمور دون الخليفة من ناحية وتعاونه مع الفرنجة والصليبيين من ناحية أخرى — أقول قد حدث فى هذه الفترة مثل الذى حدث إثر مقتل الخليفة الظافر . إذ حدث أن أرسل بعض نساء القصر الفاطمى خطابات إلى السلطان نور الدين زنكى حاكم سوريا وقتذاك يستغثن به ويستنجدنه على الوزير شاور . ويذكر المؤرخون أن نساء القصر كن يضعن أجزاء من ضفائر شعرهن فى الرسائل كما كن يصبغن كذلك قراطيس الخطابات بالسواد .

والقصد من هذه العجالة التاريخية التى تتبعت فيها أحوال الدولة الفاطمية فى القرن السادس الهجرى أن أقول إن سلطان الفاطميين قد ضعف من الناحيتين السياسية والعسكرية ، الأمر الذى أتاح لأهل السنة أن يتنفسوا فى مصر الصعداء ومن ثم استطاع ابن الكيزانى أن يجاهر فى نظمه وفى قوله وفعله بمذهبه السنى تحت سمع وبصر الخلفاء الفاطميين .

---

(١) النجوم الزاهرة : ص ٣٩٢ .

٢ ــ الأحوال الاقتصادية

وبعد هذا العرض الموجز للأحوال السياسية الداخلية والخارجية للدولة الفاطمية أنتقل إلى بيان الظروف الاقتصادية، فأقول إنها لم تكن أحسن حالا من الناحية السياسية بل إنها كانت أمر وأدهى . إذ أخذت الأزمات الاقتصادية وموجات الغلاء والفاقة والضنك تسود أرض وادى النيل، وذلك فى أكثر سنى القرنين الخامس والسادس الهجريين ؛ وخير شىء يصور لنا ما حل بمصر فى تلك السنين من الجدب والقحط وسوء العيش ما ذكره العلامة المقريزى فى كتابه ــ إغاثة الأمة بكشف الغمة ــ وإليك نص ما قال[١] :

« وقع غلاء فى خلافة المستنصر ، ووزارة الوزير الناصر لدين الله أبى محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى، وسببه قصور النيل فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة » . وبعد ذلك قال :

« ثم حدث غلاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ، ووزارة الأفضل . بلغ القمح فيه كل مائة أردب بمائة وثلاثين ديناراً. فتقدم الخليفة إلى القائد أبى عبدالله ابن فاتك الملقب بعد ذلك بالمأمون البطائحى ــ أن يدبر الحال . فختم على مخازن الغلات . وأحضر أربابها وخيرهم بين أن تبقى غلاتهم تحت الختم إلى أن يصل المغل الجديد أو يفرج عنها وتباع بثلاثين ديناراً كل مائة أردب . فمن أجاب أفرج عنه . وباع بالسعر المذكور . ومن لم يجب أبقى الختم على حواصله . وقدر ما يحتاج إليه الناس فى كل يوم من الغلة ، وقدر الغلال التى أجاب التجار إلى بيعها بالسعر المعين . وما تدعو إليه الحاجة بعد ذلك بيع من غلات الديوان على الطحانين بالسعر فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن دخلت الغلة الجديدة فانحطت الأسعار . واضطر أصحاب الغلة المخزونة إلى بيعها خشية من السوس . فباعوها بالنزر اليسير ، وندموا على ما فاتهم من البيع بالسعر الأول » .

---

(١) انظر المقريزى ــ إغاثة الأمة بكشف الغمة ــ طبع بمصر سنة ١٩٥٦ ، ص١٧ إلى ص ٢٨ .

وبعد ذلك قال أيضاً :

« ثم وقع غلاء شنيع، وقحط ذريع ؛ فى أيام الحافظ لدين الله ووزارة الأفضل ابن وحش ، إلا أنه لم يستمر ، فإن الأفضل المذكور كان قد ركب إلى الجامع العتيق بمصر ، وأحضر كل من يتعلق به ذكر الغلة . وأدب جماعة من المحتكرين ومن يزيد فى الأسعار . ووظف عليهم القيام بما يحتاج إليه فى كل يوم . وباشر الأمر بنفسه . وأخذ فيه بالحد ، فلم يسع أحد خلافه . ولم يزل الحال كذلك إلى أن منّ الله تعالى بالرخاء وكشف عن الناس ما نزل بهم من البلاء . إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم » .

وقال أيضاً :

« ثم وقع غلاء فى أيام الفائز ، بوزارة الصالح طلائع بن رزيك . بلغ فيه الأردب خمسة دنانير لقصور ماء النيل عن الوفاء ، وكان بالأهراء من الغلات ما لا يحصى ، فأخرج جملة كثيرة من الغلال وفرقها على الطحانين وأرخص سعرها ومنع من احتكارها . وأحس الناس ببيع الموجود منها . وتصدق على جماعة من المتجملين والفقراء بجملة كثيرة . وتصدق سيف الدين حسين وغيره من الأمراء وأرباب الجهات بالقصر ، ما نفس عن الناس ، ولم يستمر الحال على ذلك — سوى مدة يسيرة حتى فرج الله ، وهجم الرخاء » .

هذا وليس القصد هنا أن نتتبع الظروف والأحوال الاقتصادية التى مرت بها مصر فى ظلال الدولة الفاطمية ، وإنما القصد كل القصد أن نقول إن سوء الأحوال الاقتصادية وكثرة النوائب والملمات التى كانت تنزل بالأمة المصرية أثناء حكم الفاطميين جعلت المصريين يتشككون فى صحة العقيدة الإسماعيلية ، وبخاصة ما كان منها منوطاً بالخليفة ، إذ كان دعاة الإسماعيلية يشيعون بين الناس أن الخليفة هو المتصرف وهو الذى يغيث الناس وقت الشدائد ويرزقهم عندما تضيق سبل العيش وهو الذى يبرئ المرضى ويطعم الجائعين ويقضى حاجات السائلين ، ومصداق ذلك كله قول ابن هانى الأندلسى يمدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

أقول إن ضنك العيش وسوء الأحوال الاقتصادية وكثرة الملمات وتعدد النازلات جعل المصريين يشكون فى صحة تعاليم الباطنية ، وأن يأخذوا بالتالى فى البحث عن الإله الحقيقى الذى هو وحده يستطيع أن يكشف عنهم الضر وينقذهم من سوء ما هم فيه ، وقد وجدوا مايبتغونه فى مذهب أهل السنة والجماعة . ومن ثم ألفيناهم يتجمعون فى شكل طلاب أو مريدين حول ابن الكيزانى .

٣ ــ الأوضاع الاجتماعية

كانت مصر تنقسم فى أوائل حكم الفاطميين إلى ثلاث طبقات هى :

الطبقة الأولى : طبقة الخليفة وأفراد بيته .

والطبقة الثانية : أرباب الدولة وأعضاء الجيش وكان أكثرهم من المغاربة .

والطبقة الثالثة : هى الرعية وهم سكان مصر المستقرون فيها قبل مجىء الفاطميين من مسلمين ومسيحيين .

وفى أخريات الدولة الفاطمية انضاف إلى الطبقات الثلاثة المذكورة طبقة جديدة هى جماعة السودان حيث كان الخلفاء الفاطميون قد أخذوا فى أخريات عهدهم يستعينون بقوات من السودانيين والأحباش .

فقد ذكر أبو شامة المقدسى فى كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين أنه كان أيام صلاح الدين الأيوبى ١٠٠ ألف مقاتل سودانى يحرسون القصر الفاطمى .

وقد كانت الظروف والأحوال الاقتصادية والاجتماعية والخلقية متفاوتة غير متكافئة بين تلك الطبقات .

* * *

هذا والكلام فى الأوضاع الاجتماعية متشعب ومجال البحث والدرس فيها متسع فسيح ، ولو كنت أحد فلاسفة الاجتماع أو مؤرخيه لكتبت فى هذا المقام مئات الصفحات ولقضيت فى سبيل البحث والتحقيق فى هذا الصدد عدة سنوات .

ولكنى لست فى هذا البحث بالمؤرخ ولا بالفيلسوف ، وإنما أنا فى الحقيقة وواقع الأمر مؤرخ أدبى ، ومؤرخو الأدب والشعر يأخذون من دراسة عصر الشاعر

ـ فى مختلف نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ـ مايكفى لفهم نفسية الشاعر وتبين أطوار حياته وبالتالى يأخذون من دراسة عصره ما يعين على تفهم شعره وإدراك معانيه . لذلك كله أمسكت عنان القلم عن الإفاضة فى دراسة عصر ابن الكيزانى فى مختلف مظاهره وتعددجوانبه ، إذ أرى أن الأجدر بى أن أجمل القول وأوجز الكلام فى الظروف السياسية والعسكرية والأحوال الاجتماعية والفكرية ، والأوضاع الاقتصادية والأمور الخلقية، من حيث إنها كانت عوامل وأسباباً فى اختفاء الشعر الصوفى من على المسرح الأدبى المصرى فى القرن الخامس الهجرى . ثم عودته إلى الظهور فى ربوع وادى النيل من جديد فى القرن السادس ، على يدى رائد الطائفة الكيزانية .

الفصل الثانى

عوامل اضمحلال الشعر الصوفى فى مصر

فى القرن الخامس الهجرى وأسباب عودته إلى الظهور فى القرن السادس

بناء على ما قدمناه فى الفصل السابق نذكر هنا أنه قد خبت شعلة الشعر الصوفى وانطفأت جذوته فى القرن الخامس الهجرى، وذلك لأن الفاطميين كانوا قد عملوا على نشر مذهبهم فى ربوع مصر، وحملوا الناس بشتى الوسائل ومختلف الأساليب على اعتناقه، فى حين بذلوا الجهد فى سبيل إضعاف المذاهب الإسلامية الأخرى. لذلك وجدنا أهل الفقه والتصوف يختفون من مصر طوال هذا القرن، على حين وجدناهم ينشطون فى بلاد المغرب والأندلس وفى العراق والموصل وفى بلاد نيسابور وبخارى وخراسان، وذلك لأن أهل مصر كانوا قبل حكم الفاطميين على مذهب أهل السنة والجماعة، ولست أقول هذا جزافاً أو مبالغة، لا بل إنى قلت ما قلت عن تثبت واستيقان، فقد تصفحت أكثر كتب التراجم والطبقات الخاصة كالكواكب الدرية لعبد الرؤوف المناوى، وطبقات الشافعية لعبد الرحيم الإسناوى، ولواقح الأنوار فى طبقات الأخيار للشعرانى، وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى، وطبقات الشافعية لابن قاضى شهبة، والطالع السعيد لكمال الدين الأدفوى. وطائفة أخرى من كتب التاريخ والتراجم العامة كالوافى بالوفيات للصفدى، ووفيات الأعيان لابن خلكان، والنجوم الزاهرة، والمنهل الصافى، وكلاهما لابن تغرى بردى، وفوات الوفيات، وعيون التواريخ، وهذان كلاهما لابن شاكر الكتبى، وتاريخ مصر لابن إياس، والبداية والنهاية لابن كثير، ومن كتب الشعر والشعراء والأدب والأدباء أذكر: الخريدة للعماد الأصفهانى، ومعجم الأدباء لياقوت، وخزانة الأدب لابن حجة الحموى، وديوان الصبابة لابن أبى حجلة، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم لصلاح الصفدى، وروضة الأدب للشهاب الحجازى، وغير هذه وتلك كثيرة فلم أجد شاعراً صوفياً ذكر فى أى مما ذكرت على أنه كان يعيش فى مصر أثناء القرن الخامس الهجرى، ولا فقيهاً متصوفاً وإن لم يك شاعراً. فكل الذين ذكرهم المناوى والشعرانى من

المتصوفة هم من الذين ماتوا فى المائة الخامسة وكانوا يعيشون إما فى المغرب أو فى المشرق، وليس من بينهم أحد على الإطلاق كان يعيش فى مصر أثناء تلك الفترة، وكذلك الحال بالفقهاء الذين ذكرهم تاج الدين السبكى فإنى لم أجد واحداً من هؤلاء الذين ذكرهم السبكى قد مات فى مصر، وأنه كان يعيش فيها خلال تلك الفترة، وجملة القول فى هذا القرن أنه قد خلا من شعر الفقهاء الزاهدين والصوفية النظريين، فى حين أنه زخر بالشعراء، ولكن شعرهم وأدبهم لم يكن ليقال فى سبيل التصوف وذكر الأحوال والمقامات وتصوير المواجيد والانفعالات التى تعترى عادة قلوب السالكين، ولا فى سبيل الموعظة والحكمة والزهد فى الدنيا، وإنما كان يقال إما فى وصف الطبيعة والغزل والنسيب مذكراً كان أو مؤنثاً، وفى مدح الخلفاء الفاطميين وذكر آراء الشيعة الإسماعيلية وغير ذلك مما فصلناه فى غير هذا المقام .

أما القرن السادس الهجرى فقد تبدلت فيه الظروف واختلفت الأحوال وتغيرت الأوضاع السياسية والاجتماعية فى مصر ، إذ أخذت الدولة الفاطمية منذ أن استهل هذا القرن تضعف وتضمحل وذلك من الناحيتين الخارجية والمعنوية ، وأعنى بالخارجية هنا الناحية السياسية والعسكرية ، وبالمعنوية عقيدة الشيعة الإسماعيلية بصفة عامة . وتقديس الخليفة الفاطمى بوجه خاص . فمن مظاهر ضعف الفاطميين من الناحية العسكرية انحسار سلطانهم عن الشام ومهاجمة الفرنجة أو الصليبيين لبعض القلاع والحصون والمدن المصرية أكثر من مرة وأنهم ، أعنى الفاطميين ، قد عجزوا عن صد هجوم الفرنجة والوقوف فى وجه الصليبيين الأمر الذى حملهم على أن يستنجدوا « بنور الدين زنكى » المرة تلو الأخرى حتى كانت النجدة الشامية الأخيرة بقيادة « أسد الدين شيركوه » والتى كان فيها « صلاح الدين الأيوبى » ذلك الرجل الذى قضى على الدولة الفاطمية ، وأرجع مصر إلى الخلافة العباسية وحول أهلها من متشيعين إلى أمة تعتنق مذهب أهل السنة والجماعة ، ولعل من أوضح مظاهر ضعف الدولة الفاطمية من الناحية السياسية والعسكرية فى هذا القرن انقسام السلطة (بسبب ضعف الخليفة) بين أسرتى الوزيرين « شاور وضرغام » ثم تلك الحرب الداخلية التى دارت بين هذين الوزيرين مدة سبعة أعوام .

أما مظاهر ضعف العقيدة الفاطمية فى هذا العصر ، فأهمها انقسام الدعوة إلى فرقتين « نزارية » وأخرى « مستعلية » أو « إسماعيلية » أو « الإسماعيلية الباطنية » والثانية هى « الإسماعيلية الغربية » وهى التى عرفت بالشيعة الفاطمية وسميت دولتها باسم « دولة العبيديين » تارة والدولة الفاطمية تارة أخرى . ثم تهاون الدعاة فى نشر تعاليم الفاطميين ، وتزعزع الإيمان بصحة تلك التعاليم فى صدور كثير من الوزراء وأصحاب الهيمنة والتسلط فى الدولة ، الأمر الذى جعل هؤلاء الرجال يستخفون بأمر الدعوة الفاطمية إلى درجة أن القائمين على أمر الدعوة فى مصر أرادوا أن ينقلوا مركز الدعوة من القاهرة إلى أرض اليمن ، حيث كانت تقوم دولة الصلوحيين التى كانت تتبع فى ذلك الحين الدولة الفاطمية من الوجهتين المذهبية والسياسية .

ومن مظاهر ضعف العقيدة الفاطمية ، وعدم الحرص عليها ، إنشاء الوزير « سلار » داراً للحديث بالإسكندرية ، وجعل أمر التدريس فيها إلى رجل من كبار أهل السنة وأحد أعلام حفاظ الحديث ، وأعنى به « الحافظ السلفى » وهى أول مدرسة أنشئت بعد دار العلم فى القطر المصرى . وأخيراً تلك المناقشات وضروب الجدل التى كانت تجرى فى دار العلم بين علماء الشيعة الفاطمية وشيوخ أهل السنة والجماعة ، ولولا أن الفاطميين أسرعوا بإقفال دار العلم ، وإخراج المتناظرين والمتجادلين فيها لأصبحت دار العلم التى أنشأها الفاطميون لأغراضهم الشيعية مدرسة تنتشر فيها تعاليم أهل السنة .

أما من الوجهة الاجتماعية والأخلاقية ، فإن كثيراً من رجال القصر الفاطمى وحشداً من الدعاة والمكاثرين ، قد استهانوا بالأخلاق الدينية والاجتماعية وكثيراً ما كانوا يلهون ويعبثون ، ويعقدون مجالس اللهو والشراب ويستمعون إلى الجوارى والقيان ، وبالجملة فقد كثر التحلل واستشرى الفساد بين أرباب الدولة ودعاتها ، الأمر الذى جعل المصريين يرتابون فى دعوى الفاطميين وأئمتهم ، أضف إلى ذلك ما كان ينتاب البلاد بين الحين والحين من الجدب والقحط وكثرة المجاعات بسبب انتشار الأوبئة وانخفاض ماء النيل ، وأن توسل المصريين بالأئمة الفاطميين لم يك يجديهم فى درء تلك الكوارث وهاتيك النازلات ، وذلك على خلاف ما كان

يعتقد المصريون أو ما كان يدعيه الفاطميون وشيعتهم من أن الإمام يضر وينفع ، وأنه يفعل ما يشاء، وأنه يستطيع إذا شاء تغيير مجرى القدر .

أقول : تدبر المصريون تلك الدعاوى وقاسوها بواقع الأمر فوجدوا أن الخليفة بشر ، له ما لهم من صفات العجز والضعف وعدم القدرة على تغيير مشيئة الله فراحوا يبحثون لأنفسهم عن طريق غير التشيع تكسبهم رحمة الله ، وتستدر عليهم منّه وكرمه ، فكان أن تصوفوا ، أو قل ظهر بين ربوعهم جماعة تدعو إلى تزكية النفوس وتصفية القلوب ، وتهذيب الأخلاق بغية التقرب من الله والتزلف إليه عساه أن يقيهم سوء العاقبة وينقذهم من طغيان الحدثان ، وكانت هى أول فرقة صوفية ظهرت فى مصر منذ أخريات القرن الرابع الهجرى حتى أخريات الربع الأول من القرن السادس ، وقد عرفت هذه الجماعة الصوفية باسم الطائفة الكيزانية نسبة إلى رائدها — أو قل شيخها — وراسم منهجها وأعنى به أبا عبد الله محمد بن إبراهيم ابن ثابت المشهور بابن الكيزانى ، وهو موضوع الدراسة فى هذا الكتاب .

الفصل الثالث

فنون الشعر المصرى ومدارسه

فى القرن السادس الهجرى بوجه عام

١ — موضوعاته وأغراضه

كان الشعر العربى فى مصر أثناء حكم الفاطميين يقال فى نفس الموضوعات والأغراض التى كان يقال فيها الشعر العربى فى مختلف الأقطار العربية فى الماضى والحاضر على السواء، إذ من المعروف عن الأدب العربى أنه قيل فى جميع أعصاره ومختلف بيئاته فى المدح والرثاء والفخر والحماسة والهجاء ، وفى وصف المرأة والطبيعة بما فيها من أرض وسماء وشمس و بدر وهواء وماء، وفى وصف النباتات والأزهار والحدائق والأنهار، وفى ذكر الجآذر والظباء والأشجار والأطيار، ثم فى تصوير ما تنفعل به النفس من أحوال عاطفية ومعان فكرية واعتقادية، وأعنى بالحالات العاطفية مايعتور القلب من انفعالات وأحاسيس شعورية وجدانية تحدث للشاعر أو الأديب بسبب ما يصادفه فى حياته من مسرات وأحزان ولذات وآلام ومن أفراح وأتراح، وأقصد بالمعانى الفكرية تلك الآراء والنظريات التى يستخلصها الشاعر أو الأديب من تجاربه ومشاهداته لما يقع فى هذه الحياة من نوائب ومصـــائب وكوارث ونازلات فردية أو جماعية مما يرد العقل بعضه إلى غائلة الدهر وطغيان الحدثان و بعضه الآخر إلى سوء أعمال بنى الإنسان ، وذلك كتلك الحكم والأمثال التى وجدناها فى شعر زهير وطرفة قبل الإسلام، وفى شعر بشار و رؤبة وغيرهما فى العصر الأموى، وعند أبى العتاهية وأبى تمام ثم المتنبى وأبى العلاء فى العصور العباسية .

وأما المعانى الاعتقادية فقد عَنَيت بها تلك الآراء الدينية التى ضمنها الشيعة والخوارج أشعارهم فى العصر الأموى ثم الشيعة والزنادقة وأهل السنة والمتصوفة فى